الروابط القديمة

بين بلاد العرب والقطر المصري

للدكتور حسن كمال

مدير الصحة الدولية والدعاية الصحية بوزارة الصحة

تؤدي فريضة الحج كل عام حوالي العشرة آلاف نسمة من سكان القطر المصري لأنها الركن الخامس للإسلام فهي واجبة شرعاً على كل مسلم . لكن كلما عاد الحاج المصري المثقف الى وطنه خالجته الرغبة في معرفة الروابط التاريخية القديمة التي كانت تربط القطر المصري بالقطر الشقيق والتي يرجع تاريخها الى ما قبل الاسلام

اما ان هناك روابط عديدة وحوادث تاريخية هامة ونظريات علمية خطيرة ذات علاقة بالموضوع فأمر معروف لدى المشتغلين بالآثار . ورغبة في اظهار هذه الروابط رأيت ان أجمع الهام منها راجياً بذلك أن أسد فراغاً تتوق اليه أنفس كثير من الباحثين

على الرغم من الرأي الحديث القائل بأن المصريين الاقدمين نشأوا وترعرعوا في القطر المصري — ذلك الرأي الذي يطلق عليه الاثريون لفظ (Autochthonism) — فأن هناك اسانيد هامة تشير الى ان المصريين الاقدمين وسكان بلاد العرب من اصل واحد — وهناك رأي كذلك بأن المصريين أتوا من بلاد العرب عن طريق باب المندب فالسودان يعزز ذلك اولية الجنوب عند قدماء المصريين واشتراك العرب والمصريين في قنا الأنف وديدبة الذقن وتعومة الشعر

اما رابطة اللغة فأني اترك فيها الكلام للمغفور له احمد كمال باشا الأثري حيث ذكر في (مقتطف سبتمبر سنة ١٩٢١ ص ٢٦٣) تحت عنوان بحث لغوي ما يأتي : —

« ان المصريين القدماء ارادوا تخليد ذكر اصلهم فأثبتوه بالحفر على آثارهم قائلين ان أجدادهم يدعون الاعناء (جمع عنو) اي انهم اقوام من قبائل شتى اجتمعوا في وادي النيل وأسسوا فيه مدناً كثيرة منها مدينة عين شمس ويقال لها بالمصرية العين البحرية ومنها العين الجنوبية وهي

أرمنت ومنها عين التي سميت فيما بعد دندرة . ولما نموا وكثروا تفرقوا في الجهات المجاورة لوادي النيل ففريق منهم وهو المعروف باسم اعناء (الحنو) او النوبيين توجهوا الى بلاد نبيون وتونس والجزائر وسكنوا فيها وفريق آخر يسمى اعناء (التحنو) هاجر الى بلاد الصومال واجتاز البحر الاحمر الى بلاد العرب وانتشر ممتدًا الى فلسطين . وفريق ثالث يسمَّى اعناء (السيتو) سكنوا القسم الجنوبي من مصر حيث جنادل النيل . وفريق رابع ويقال له اعناء (الكنوز) وهم أهل النوبة . وهكذا تفرق الاعناء وتوطنوا الجهات التي ذكرناها وبثوا فيها لغتهم مدة من الدهر فكانت هي لغة البلاد التي تكلم الى الآن بالعربية . فاللغة المصرية أي لغة قبائل الاعناء التي سكنت مصر وما جاورها من الاقاليم هي اصل اللغة العربية بلا مراء ، وعلى هذا الاساس ارجع سعادته في معجمه الضخم كل كلمات اللغة المصرية القديمة الى ما يقابلها في العربية .

واستنتاج سعادته الى من نصوص الدير البحري — وهو بـ نظرية النشوء الذاتي [illegible] ومع انه لا يتعارض مع نظرية ارجاع المصريين الاقدمين الى بلاد العرب ومجيئهم من باب المندب فالحبشة فالسودان فمصر إلاَّ انهُ يرجع بالعنصرين المصري والعربي الى أصل واحد بل ولغة واحدة

***

وكم كنا نودّ لو اجريت الباحث الخاصة بالنسب الدموي على عدد كبير من المصريين والعرب لعلنا نستوثق من هل غاية هذين العنصرين ترجع الى أصل واحد كما هو المظنون . وقد ساهم الاستاذ الفاضل الدكتور علي بك شوشه مدير مصلحة معامل الصحة في بحث هذا الموضوع وشرحه في بعض محاضراته وكذلك الدكتور محمد شرف بك . ونحن نتقدم هنا الى شوشه بك طالبين منهُ أن يضحّي بعض وقته فيصرفه في تحليل دماء عدد كافٍ من المصريين والعرب عسى أن يصل بنا الى نتيجة علمية حاسمة

هل غزا العرب مصر في أواخر حكم الاسرة الثامنة ؟ (حواني ٢٤٤٥ق . م) هذا السؤال لا يزال يتكهن به بعض الباحثين أمثال فلندرز بتري . والمعروف انهُ لما سقطت الاسرة الثامنة تفككت عرى الحكومة المصرية وعمت الفوضى البلاد وساد فيها التلف وكثر الخراب . اما الاشخاص المسؤولون عن هذا الانقلاب العظيم فلم تهتد اليهم . ويظن الاستاذ بتري أنهم كانوا من عنصر عربي غزا مصر عن طريق برزخ السويس كما يستنتج ضمناً من آثار الملك (خيان) الذي تمصر وادَّعى انهُ حكم جميع القطر المصري كما ادَّعى بعده الرعاة لما دخلوا مصر ، وقد عثر على الجزء السفلي لتمثال هذا الملك بمعبد تل بسطة . وهو مصنوع على شكل التماثيل المصرية

القديمة ومن الصوان الاسود . كما عثر على صخرة بجبل منقوش عليها اسم هذا الملك داخل خمة ملكية وغير ذلك من الآثار . وقد لقب هذا الملك بأنه « امير الجبال » — ويعني امير الصحراء — فهو واخالة هذه يشير الى الحكم الصحراوي . وقد بسطة من اوائل الاماكن المصرية التي يحتلها الاجنبي عند دخوله القطر المصري ، ويعي هذا الملك ملك آخر يقال له (خزر) وملك ثالث اسمه (يعقوب حر) . وهذه الاسماء الثلاثة اجنبية وليست مصرية . اما الاستاذ برستد فينسب هذه الملوك الى عهد الهيكسوس او الرعاة الذين دخلوا مصر حوالي ١٧٠٠ق.م) وحكموها ومكثوا بها حتى عام ١٥٨٠ ق . م . وقد قال يوسيفوس (Josephus) ان الهيكسوس هم بنو اسرائيل فاذا كان هذا الرأي صحيحاً — وهو على الارجح غير صحيح — فان خروج الهيكسوس من مصر يكون عبارة عن خروج بني اسرائيل .ولم نعثر حتى الآن في آثار هذا العهد عن ذكر لبني اسرائيل قط ,وعلى ذلك فيجب اعتبار الهيكسوس غير بني اسرائيل

والهيكسوس او الرعاة من اصل عربي بدليل قول الاستاذ برستد ان معرفة وطن امبراطورية الهيكسوس.وأصلهم وأخلاقهم ليس صعباً وان الغالب ان رواية (مانيتون) القائلة بأن هؤلاء القوم فينيقيون صحيحة

***

والثابت ان اهالي بلاد العرب كثيراً ما هاجروا الى سوريا . ولذلك لا يبعد ان هذين القطرين اتحدا بعد مجهودات حربية تحت ادارة حاكم قوي وكوّنا مملكة واحدة . وليلاحظ ان السوريين الذين أتوا الى القطر المصري ايام الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٩ — ١٧٨٨ق.م) كانوا متمدنين راقين كما ان حروب الفراعنة في سوريا بعد طرد الهيكسوس من مصر أثبتت وجود حضارة عظيمة هناك . والظاهر ان انهيار صرح امبراطورية الهيكسوس العظيمة ترك بعض تأثيراته في اهالي فلسطين وسوريا استمرت عدة اجيال بعد بسط النفوذ المصري عليها . ولذلك نجد بين اخبار حروب مصر بتلك الجهات بعض معلومات عن امبراطورية الهيكسوس التي تضعضعت

اما هجرة سيدنا ابراهيم من بلاد العراق الى كنعان فحصلت حوالي ١٦٠٠ق.م . ولم نعرف بالضبط تاريخ دخول بني اسرائيل القطر المصري ولا مدة مكوثهم به . لكن يستدل من نصوص الكتاب المقدس ان تاريخ الخروج كان سنة ١٤٩٠ ق . م . وخطابات تل العمارنة التي يرجع تاريخها الى (١٤١٥ — ١٣٦٢ ق . م .) — في عهد اخناتون — تشير الى وجود (عابرا) ؟ العبرانيين في فلسطين

وفي سنة ١٢٢٥ ق . م . قامت ثورة ضد ملك مصر (منفتاح) في فلسطين اخمدت . وورد

ضمن اخباره « ان الاسرائيليين أيدوا ولم يق لهم بذرة » . وفي سنة ١٠١٠ ق . م استولى سيدنا داود على مدينة بيت المقدس وفي عام ٩٣٠ ق . م سبب المصريون بيت المقدس. وفي عام ٥٨٦ ق . م سقطت بيت المقدس في ايدي البابليين. وفي عام ٣٣٢ ق.م خضع البرانيون لسلطة اسكندر الاكبر . وفي عام ٣٢٠ ق . م استولى بطليموس على بيت المقدس

***

هذا باختصار بيان بعلاقة مصر القديمة بشمال بلاد العرب حتى عهد بطليموس الاول — وهي علاقة بوزها الكثير من البحث والاسانيد والمراجع الوثيقة وغير ذلك . وعلى كل حال فهذا هو كل ما يمكن ان يقدمهُ الكاتب للقارىء في إيجاز يناسب المقام

بقي علينا بعد ذلك ان نبحث في علاقة بلاد العرب بنقط خاصة في العهد اليوناني وقد وفى الاستاذ (تارن — Tarn) هذا الموضوع حقهُ في « الحوليات المصرية » عام ١٩٢٩ ص ١٠ — ٢٥) نقتطف منها ما يأتي مما يهم القارىء معرفته . —

لاشك ان معلومات اسكندر المقدوني عن شبه جزيرة العرب وخصبها كانت ناقصة جداً لانهُ أمر هيرون (Hieron) ليطوف حول شبه جزيرة العرب من بابل الى هيروبوليس (خليج السويس) فقام بحراً حتى وصل رأس مسندام فقط وقفل راجعاً وذكر في تقريره ان بلاد العرب لابد وان تكون كبيرة كبلاد الهند . وفي الوقت نفسه أمر اسكندر المقدوني بارسال بعثة بحرية لتطواف حول شبه جزيرة العرب من خليج السويس الى خليج الفرس فوصلت هذه البعثة حتى باب المندب وقفلت راجعة أيضاً لقلة الغذاء والماء على الارجح ، وقد ذكرت البعثة الاخيرة ان المسافة بين السويس وباب المندب تبلغ ١٤٠٠ فرسخ يوناني وهو تقدير قريب جداً من الصواب اذ انها في الحقيقة ١٣١٢ فرسخاً يونانياً (Stades) . ولما وصلت البعثة الى حضرموت سمعت بوجود ممالك غنية على الساحل العربي مثل مهرا وحضرموت وسبأ

وفي عهد بطليموس الثاني (٢٨٣ — ٢٤٧ ق . م) عُهد الى بعثتين لاكتشاف ساحلي البحر الاحمر الشرقي والغربي بدقة وعناية اما البعثة التي قامت باكتشاف الساحل الشرقي. فوصلت الى باب المندب وكانت تحت رئاسة ارستون (Ariston) الذي ورد في مذكراته اقدم ذكر للنود في النصوص اليونانية

***

ولنبحث الآن في سرّ اهتمام اليونانيين بجزيرة العرب . لاشك ان اليونانيين وغيرهم من الممالك المجاورة كانوا كثيري الاهتمام بالاستيلاء على شمال بلاد العرب لان تجارة العطور

كانت تأتي من الهند والشرق الأقصى الى جنوب بلاد العرب بالسفن وتنتقل منها بواسطة القوافل عن طريق سبأ ويثرب (المدينة المنورة) متبعة بعد ذلك طريق السكة الحديد الحجازية حتى (العلا) و(ميدان صالح) ومن ثم تتفرع الطريق فرعين فرع يتجه نحو (غزة) والآخر نحو (طبرة) و(دمشق) . هذا هو السر الذي من اجله ناضلت مصر قدماً بابل في شمال بلاد العرب وتشتر

***

الى هنا انتهى ما اردت ذكره عن العلاقات القديمة بين شبه جزيرة العرب والقطر المصري بعد ذلك يأتي العهد الروماني والاسلامي وهما معروفان

ولكن قبل الفراغ من هذا البحث يجب ذكر شيء عن رابطة الدين فالمعروف من الآثار المصرية ان الديانة المصرية قبل حكم الاسر كانت تتركز في التوحيد. فقد قال المرحوم كمال باشا (بغية الطالبين ص ٥١) ما يأتي : —

لا شك ان سلف اهل مصر كانوا يعتقدون وجود الله واحد ربي ولا يُرى ومعبود صمدي قديم ازلي لا اول له ولا آخر وانهم كانوا يقدسونهُ باجلال نعمه الجليلة ويتقربون اليه بعمل الحسنات واجتناب السيئات ومعرفته واداء شعائر عبادته وانهم ارتقوا في عادة معنى الالوهية الى درجة قصوى . وقد ورد في آثارهم كثير من الجمل والعبارات المثبتة لوحدانية الله تعالى وقدرته واحواله وصفاته بها — كل شيء خلقهُ الله العظيم بنفسه — ومنها — خالق الكائنات والاشياء — ومنها — الخالق لكل مخلوق الذي لم يخلق (وهو) فاطر السماء والارض . — ومنها — الموجد لكل ما يكون أما ما لم يكن فهو في مكنون علمه — ومنها الله معبود باسمه الأزلي خالق الأرواح في الاشباح — ومنها يمضي الدهور وهو باق دائماً — ومنها — ذو الازلية الذي يمضي دهوراً لا تمضي وهو على حالة وجوده — ومنها — ذو الازلية الذي لا حدّ له — ومنها — لا يمسك بالذراع ولا يقبض باليد — ومنها — لا تدركه الابصار — ومنها — سميع لمن يتضرع اليه — ومنها — الذي يكون والذي لا يكون مختص به — ومنها ما ورد في معنى التوحيد — الواحد الذي لا شريك له

وقد وافق على اعتقاد المصريين بوحدانية الله كثير من علماء اللغة المصرية القديمة — أما تعدد المعبودات التي قالت بها الآثار فليست إلاّ أمراً ظاهرياً قصد به بيان مظاهر الذات العلية ليس إلاّ »

وهكذا — حتى في الديانة — بدأ أهل مصر وأهل شبه جزيرة العرب نشأتهم بالتوحيد وانتهوا بنفس العقيدة على يد سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم